

صيد الخاطر

15 - - فصل : شرف الغنى و مخاطرة الفقر .

رأيت من أعظم حيل الشيطان و مكره أن يحبط أرباب الأموال بالآمال و التشاغل باللذات القاطعة عن الآخرة و أعمالها .

فإذا شغلهم بالمال - تحريضا على جمعه و حثا على تحصيله - و أمرهم بحراسته بخلا به . فذلك من متين حيله و قوي مكره ثم دفن في هذا الأمر من دقائق الحيل الخفية أن خوف من جمعه المؤمنين فنقر طالب الآخرة منه و بادر التائب بأن يخرج ما في يده . و لا يزال الشيطان يحرضه على الزهد و يأمره بالترك و يخوفه من طرق الكسب إظهارا لنصحه و حفظ دينه و في خفايا ذلك عجائب من مكره .

و ربما تكلم الشيطان على لسان بعض المشايخ الذين يقتدي بهم التائب فيقول له : اخرج من مالك و ادخل في زمرة الزهاد .

و متى لك غداء أو عشاء فلست من أهل الزهد فلا تنال مراتب العزم .

و ربما كرر عليه الأحاديث البعيدة عن الصحة الواردة على سبب و لمعنى .

فإذا أخرج ما في يده و تعطل عن مكاسبه عاد يعلق طعمه بصلة الإخوان أو يحسن عنده صحبة السلطان لأنه لا يقوى على طريق الزهد و الترك إلا أيا ما ثم يعود فيقاضى مطلوباته فيقع في أقبح مما فر منه .

و يبذل أول السلع في التحصيل دينه و عرضه و يصير متمدلا به و يقف في مقام اليد السفلى .

و لو أنه نظر في سير الرجال و نبلائهم و تأمل صحاح الأحاديث عن رؤسائهم لعلم أن الخليل عليه الصلاة و السلام كان كثير المال حتى ضاقت بلدته بمواشيه .

و كذلك لوط عليه الصلاة و السلام [و كثير من الأنبياء عليهم الصلاة و السلام] و الجم الغفير من الصحابة و إنما صبروا عند العدم و لم يمتنعوا من كسب ما يصلحهم و لا من تناول المباح عند الوجود .

و كان أبو بكر B يخرج للتجارة و الرسول صلى الله عليه و سلم حي .

و كان أكثرهم يخرج فاضل ما يأخذ من بيت المال و يسلم من ذل الحاجة إلى الإخوان و قد كان ابن عمر لا يرد شيئا و لا يسأله .

و إنني تأملت على أكثر أهل الدين و العلم هذه الحال فوجدت العلم شغلهم عن المكاسب في بداياتهم فلما احتاجوا إلى قوم نفوسهم ذلوا و هم أحق بالعز .

و قد كانوا قديما يكفيهم من بيت المال فضلا عن الإخوان فلما عدم في هذا الأوان لم يقدر متدين على شيء إلا يبذل شيء من دينه و ليته قدر فربما تلف الدين و لم يحصل له شيء فالواجب على العاقل أن يحفظ ما معه و أن يجتهد في الكسب ليربح مداراة ظالم أو مDAHنة جاهل و لا يلتفت إلى ترهات المتصوفة الذين يدعون في الفقر ما يدعون .
فما الفقر إلا مرض العجز و للصابر على الفقر ثواب الصابر على المرض اللهم إلا أن يكون جبانا عن التصرف مقتنعا بالكفاف فليس ذلك من مراتب الأبطال بل هو من مقامات الجبناء الزهاد .

و أما الكاسب ليكون المعطي لا المعطى و المتصدق لا المتصدق عليه فهي من مراتب الشجعان الفضلاء و من تأمل هذا علم شرف الغنى و مخاطرة الفقر